٢ ـ المجنـــون

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ورأيتُ المجنونين يدخلان معاً فكأنما سدَّا الباب وسوَّياه بالبناء ، وتركا الغُرفةَ حائطاً مُصمتاً لا بابَ فيه مما اعتراني من الضيق والحرج ؛ وقلت في نفسي : إنه لا مذهبَ للعقل بين هذين إلا أن يُعينَ كلاهما على صاحبه ، فأرى أن أدَعهما وأكونَ أنا أصرَّفُهما ؛ وربما جاء من النوادر في اجتماع مجنونين ما لا يأتي مثله من عقلين يجتمعان على ابتكاره . غير أني خشيتُ أن أكون أنا المجنون بينهما ، ثم لا آمن أن يَثِب أحدهما بالآخر إذا خطرتْ به الخطْرةُ من شيطانه ، فرأيت أن يكونَ لي ظهيرٌ عليهما ، إن لم يحقَّ به العونُ فلا أقلَّ من أن يطول به الصبر . . وكان إلى قريب مني الصديق ا . ش . فأرسلت في طلبه

أما هذا المجنونُ الثاني الذي جاء به (نابغة القرن العشرين) فقد رأيته من قبل ، وهو كالكتاب الذي خُلِّطت صحفُه بعضها في بعض فتداخلتْ وفسد ترتيبها ، وانقلب بذلك العلمُ الذي كان فيها جهلاً وتخليطاً يثبُ الكلام بعد كل صفحة إلى صفحة غريبة لا صلة لها بما قبلها ولا ما بعدها

وهو طالبٌ أزهريٌّ كان أكبر همِّه أن يصير حافظاً كالحفاظ الأقدمين من الرواة والفقهاء ، فجعل يستظهرُ كتاباً بعد كتاب ومتْناً بعد متن ؛ وكانت له أُذُنٌ واعيةٌ فكل ما أفرغ فيها من درس أو حديث أو خبر ، نزلَ منها كالنقر على آلة كاتبة ، فينطبعُ في ذهنه انطباعَ الكتابة لا تُمحى ولا تُنسى

ثم التاثَ هذه الدُّونةَ وهو يحفظ متناً في فقه الشافعي رضي الله عنه ، فمَرَّ سنين يتحفظُه ، كلما انتهى إلى آخره نسيه من أوله ؛ فيعود في حفظه وربما أثبتَ منه الشيء بعد الشيء ، ولكنه إذا بلغ الآخر لم يجد معه الأول ؛ فلا يزال هذا دأبه لا يملُّ ولا يجد لهذا العناء معنى ، ولا يزال مقبلاً على الكتاب يجمعه ثم لا يزال الكتابُ يتبدَّدُ في ذاكرته .

وترك المعهد الذي هو فيه وتخلى في داره للحفظ وأجمع أن لا يدع هذا المتن أو يحفظه كأن فيه الموضعَ الذي فارقه عقله عنده ، وبذلك رجع المسكين آلة حفظ ليس لها مسَاك ؛ وأصبح كالذي يرفع الماء من البحر ، ثم يلقيه في البحر ، لينزح البحر . . .

* * *

وجاء ا . ش . فقلت له وأومأتُ إلى المجنون الأول : هذا نابغةُ القرن العشرين

قال : وهل انتهى القرنُ العشرون فيعرف مَن نابغتُه ؟

فقلت للمجنون : أجبه أنت . فسأله : وهل بدأ القرنُ الواحد والعشرون ؟ قال لا

قال : فإن هذا الذي إلى جانبي نابغةُ القرن الواحد والعشرين . . . فكما جاز أن يكون هو نابغةَ قرن لم يبدأ ، جاز أن أكون أنا نابغةَ قرن لم ينته

قلتُ : ولكنك زدتَ المشكلة تعقيداً من حيث توهمتَ حلها . فكيف يكون ممك في آن وبينك وبينه خمس وستون سنة ؟

فنظر نظرةً في الفضاء ، وهو كلما أراد شيئاً عسيراً نظر إلى اللاشيء . . . ثم قال : هذه الأمورُ لا تشتبه إلا على غير العاقل . . . وكيف لا يكون بيني وبينه خمس وستون سنة وأنا أتقدَّمه في النبوغ بأكثر من علم العلماء في خمس وستين سنة . . . ؟

قلت للآخر : أكذلك ؟

قال : مما حفظناه عن الحسن : أدركنا قوماً لو رأيتموهم لقلتم مجانين ، ولو أدركوكم لقالوا شياطين . . .

فضحك الأول وقال : إنه تلميذي

قال الثاني : لقد صدق فهو أستاذي ولكنه حين ينسى لا يذكِّره غيري . . .

قلت : لا عجب ؛ « فما حفظناه » عن الزُّهري : إذا أنكرت عقلك فاقدحه بعاقل . . .

فغضب نابغة القرن العشرين وقال : ويحٌ لهذا الجاهل ، الأحمق ، الجاحد للفضل ، مع جنونه وخبله . أيذكِّرني وهو منذ كذا وكذا سنةً يحفظ متناً واحداً لا يمسكه عقله إلا كما يُمسك الماء الغرابيل ؟ صدق والله من قال : عدوٌّ عاقل خيرٌ ؛

خير ؛ خير . فقال الثانى : خير من صديق جاهل ، هأنذا قد ذكرتك من نسيان ، وهأنت ذا رأيت

فضحك النابغة وقال : ولكنى لم أرد أن أقول هذا ، بل أريد أن أؤلف كلاماً آخر . . . . . عدوٌّ عاقل خيرٌ ، خيرٌ ، خيرٌ ؛ خير من مجنون جاهل . . . . . .

* * *

ورأيت أن فى التقاء مجنونين شيئاً طريفاً غيرَ جنونهما ، وصح عندى أن المجنون الواحد هو المجنون ؛ أما الاثنان فقد يكون من اجتماعهما وتحاورهما فنٌّ ظريف من التمثيل إذا وجدا من يُصَرِّفهما فى الحديث ، ويستخرج ما عندهما ، ويستكشفُ منهما قصتهما العقلية ... ...

ولم أكن أعرف أن (نابغة القرن العشرين) من المجانين الذين لهم أُذُنٌ فى غير الأذُن ، وعينٌ فى غير العين ، وأنفٌ بغير الأنف ؛ إذ تتلقى أدمغتهم أصواتاً وأشباحا وروائح من ذات نفسها لا من الوجود ، وتدركها بالتوهم لا بالحاسة ، فتَتَخَلَّقُ هواجسهم خَلْقاً بعد خَلق ، وتخطر الكلمة من الكلام فى ذهن أحدهم فيخرج منها معناها يتكلم فى دماغه أو يمشى أو يلاطفه أو يؤذيه أو يفعل أفعالاً أخرى

وبينا أنا أُدير الرأىَ فى اخراج فصل تمثيلىّ من الحوار بين هذين المجنونين (١) ، إذ قال (نابغة القرن العشرين) : صَهْ ، إن جرس « التلفون » يدق

قال ا . ش : لا أسمع صوتاً وليس ههنا تلفون

فاغتاظ المجنون الآخر وقال : إنك تَتَقَحَّمُ على النوابغ ولست من قدرهم ، وما عملك إلا أن تبكر ، والانكارُ ، ويلك ، أيسر شىء على المجانين وأشباه المجانين ، والعامة وأشباه العامة ؛ وقد أنكرت نبوغه آنفاً وأراك الآن تنكر « تلفونه » .....

قال ا . ش : وأين التلفون وهذه هى الغرفة بأعيننا ؟

فضحك (نابغة القرن العشرين) وقال : صه ويحك لقد خلطت علىّ ؛ إن الجرس يدقُّ مرة أخرى وأنا لا أريد أن أكلمها حتى يطول انتظارُها ، وحتى تدق ثلاث مرات ، وأخشى أن تكون قد دقت الثالثة وذهب رنينها فى صوتك ولغطك

قال المجنون الآخر : هى صاحبته التى يهواها وتهواه ؛ وقد استهامها وتَيَّمها وحيَّرها وخبَّلها ، حتى لا صبر لها عنه ؛ فوضعت له تلفوناً فى رأسه ... ...

قال « النابغة » : وهذا التلفون لا يُسمعنى صوتها فقط ، بل هو يُنشقنى عطرها أيضاً . وقد تكلمنى فيه الملائكة أحياناً ، وأنا ساخط على هذه الحبيبة فانها غيورٌ تخشى سطواتها على اللائى تغار منهن ؛ ولولا ذلك لكلمتنى فى هذا التلفون إحدى الحور العين ... ...

قلنا : أو تغار منها الحورُ العين ؟

قال المجنون الثانى : بل الأمر فوق ذلك ، فان الحور العين يشتُمنها ويلعنها ؛ « فيما حفظناه » هذا الحديث : لا تؤذى امرأةٌ زوجها فى الدنيا إلا قالت زوجتُه من الحور العين : لا تؤذيه قاتلك الله ؛ فانما هو عندك دخيلٌ يوشك أن يفارقك الينا

قال (نابغة القرن العشرين) : ويلى على المجنون ! إنه يريد أن يخلوَ له موضعى فهو يتمنى هلاكى وانتقالى وشيكا من هذه الدنيا . وهو يقول بغير علم لأنه أحمق ليس له عُقدةٌ من العقل ، فيزعم أنها تؤذينى ، ولو هى آذتنى لغضبت قبل ذلك ، ولو غضبت لرفعت التلفون . صه إن الجرس يدق

* * *

قال ا . ش : إن للنوابغ لشأنا عجيبا ، ففى مدينة الشرقية رجلٌ نابغةٌ ماتت زوجته وتركت له غلاما فتزوج أخرى وهو يعيش فى دار أبيه . فلما كان عيد الأضحى سأل أباه مالاً يبتاع به الأضحية فلم يعطه . وهو رجل يحفظ القرآن فذكر قصة ابراهيم عليه السلام ورؤياه فى المنام أنه يذبح ابنه ، فخُيِّل اليه أن هذا باب الى النبوة وأن الله قد أوحى اليه ، فأخذ الغلام فى صبيحة العيد وهمَّ بذبحه . ولولا أن صرخ الغلام فأدركه الناس فاستنقذوه ...

قال (نابغة القرن العشرين) : هذا مجنون وليس بنابغة ؛ بل هذا من جهلاء المجانين ؛ بل هو مجنون على حدته . وقد رأيته فى البيمارستان حين كنت أنا فى المستشفى ... فكان يزعم أنه ائتمر فى ذبح غلامه بارادة الله . ولو كانت إرادةَ الله لنفذت بالذبح ، ولو كان الأمر وحياً لنزل عليه من السماء كبش يذبحه ...

(١) سيأتى هذا الفصل التمثيلى فى مقال آخر

وهكذا أنا فى المنطق (نابغة القرن العشرين)

ثم إنه أشار الى المجنون الثانى وقال : وأنا أتقدم هذا فى النبوغ بأكثر من علم العلماء فى خمس وستين سنة كاملة

قلت : ولكنك ذكرتَ هذا من قبل فلِمَ عُدتَ فيه الآن ؟

قال : إن السبب قد تغير فتغير معنى الكلام ؛ وقد بدا لى أنه يتمنى هلاكى ليكون هو نابغة القرن العشرين . فمعنى الكلام الآن : أنه لو عاش خمسا وستين سنة « يحفظ المتن » لما بلغ مبلغى من العلم . هذا رجل نصفه ميتٌ جنوناً موتاً حقيقياً ، ونصفه الآخر ميت جهلاً بالموت المعنوى

قال ا . ش : حسبُهُ أن يقلدك تقليدَ العامى لأمامه فى الصلاة ؛ وعسى ألا تستكثر عليه هذا فانه تلميذك

قال المجنون الثانى « مما حفظناه » : لو صُوِّر العقلُ لأضاء معه الليل ، ولو صور الجهلُ لأظلم معه النهار ... ونابغة القرن العشرين هذا لا يعرف كيف يصلى ، فقد وقف منذ أيام يصلى بالشعر ... ولما رأيته ناسياً فذكرته ونبهته أن الصلاة لا تجوز بالشعر ، التفت الى وهو راكع فسبَّنى وشتمنى وصرخ فىَّ وقال : ما شأنك بى هل أنا أصلى لك أنت ...

فغضب « النابغة » وقال : والله إنْ تحسبونى إلا مجنونا فتريدون أن يقلدنى هذا الأحمقُ الذى ليس له رأىٌ يُمسكه .. ولولا ذلك لما اعتقدتم أن تقليدى من السهل الممكن ، ولعرفتم أن نابغة القرن العشرين نفسه لم يستطع تقليد نابغة القرن العشرين

قلنا : هذا عجيب ، وكيف كان ذلك ؟

فضحك وقال : لا أعدَمكم من الأذكياء إلا إذا عقلتم كيف كان ذلك

قال ا . ش : هذا لم يُعرف مثلُه فكيف نعرفه ، ولم يتوهمه أحد فكيف نتوهمُه ؟

وقلت أنا : لعلك رأيت نفسك فى الرؤيا

قال : لو لم تكن أستاذ نابغة القرن العشرين لما عرفتها ؛ وهذا نصف الصواب ؛ وما دمت أستاذى ، فلو أننا اختلفنا فى رأى لكان خلافك لى صوابا لأنه منك ، وكان خلافى لك صوابا لأنه منى ؛ فأنت (غير مخطىء) وأنا مصيب ، وإذا أسقطنا كلمة (غير) أظلُّ أنا مصيباً وتكون أنت مخطئاً . . .

أنا لم أر (نابغة القرن العشرين) فى الرؤيا ولكنى رأيته فى المرآة عند الحلاق . . . ورأيته يقلدنى فى كل شىء حتى فى الاشارة والقَوْمة والقَعْدة ، ولكنى صرختُ فيه وسببتُهُ ففتح فمه ثم خافنى ولم يتكلم . . .

وأومأ إلى المجنون الآخر وقال : وأنا أتقدم هذا فى النبوغ بأكثر من علم العلماء فى خمس وستين سنة

قال ا . ش : لقد قلتَها مرتين كلتاهما بمعنى واحد ، فما معناك فى هذه الثالثة ؟

قال : هذا الغِرُّ يزعم أنى لا أعرف كيف أصلى ، ويستدلُّ بذلك بأنى صليتُ بالشعر وأنى شتمته وأنا راكع ؛ ولو كان عاقلاً لعلم أن شتمى إياه وأنا راكع ثواب له . . . ولو كان نابغةً لعلم أن الشعر كان فى مدح دولة النحاس باشا وأولى الشُّعَى

قلنا : ولكن الشعر على كل حال لا تجوز به الصلاة ولو فى مدح دولة النحاس باشا

قال : لم أصلِّ به ولكن خطر لى وأنا أصلى أنى نسيتُ القصيدة فأردت أن أتحقق أنى لم أنسها .... فاذا أنا نابغة القرن العشرين فى الحفظ وهى ستة أبيات . لا كهذا المعتوه الذى صبر على المتن صبرَ الغريب على الغُربة الطويلة ومع ذلك لم يحفظه

قال ا . ش : فأملِ علينا هذا الشعر . فأملى عليه[1]

يا حليفَ السُّهْد قل لى ... أين مَنْ فى الدهر خالْ
إن تكن تهوى غزالاً ... أكحل العينين مالْ
أنا أهواها ولكن ... لا سبيل إلى الوصالْ
منذ ولَّت قلتُ مهلاً ... منذ غابت فى خيالْ
أنا مجنونٌ بليلى ... ليلَ يا ليلى ! تعالْ

قلنا ولكن ليس هذا مدحا . فضحك وقال : أردت أن تعرفوا أنى أقول فى النَّزَل ، أما المديح فهو :

شغف الورى بمناصب وأمانى ... وشغفت يا نحاس بالأوطان
حسبوا الحياة تفاخرا وتنعما ... وحسبتها لله والأوطان

ثم أرتج عليه فسكت . قال المجنون الآخر : انها ستة أبيات ، وقد نسيت أربعة ، ولست أريد أن أذكرك

فقال (النابغة) : أظنه قد حان وقت الصلاة وأريد أن أصلى ..

(١) هذا شعره بحروفه كما أملاه

ونظر إلى اللاشيء في الفضاء ثم قال . والبيت الأخير :

لا أبتني في المدح غير أولى النُّهى أو صادق[1] أو شوق أو مطران

ثم أمر ا . ش . أن يقرأ عليه الشعر فقرأه ، فقال : أحسنت ، أنظر إلى فوق ؛ فنظر ، ثم قال انظر إلى تحت ؛ فنظر ثم سكت

قال ا . ش : وبعد ؟ قال : وبعدُ فان الناس ينظرون إما إلى فوق وإما إلى تحت . . .

* * *

وكان الضجر قد نال مني ، فرجوت ا . ش . أن يلبث معهما وأذنت لنابغة القرن العشرين أن يلقاني في الندىّ وانصرفت

قال ا . ش وهو يُنبِّئني : فما غبت عنا حتى أخذ المجنون يشكو ويتوجع ويقول : لقد حاق بي الظلم ، وإن (الرافعي) رجل عَسُوفٌ ظالم لأني أكتب له كل مقالاته التي ينشرها في (الرسالة) ... وأجمع نفسي لها ، وأجهدُ في بيانها ، وأُذيب عقلي فيها ، وهو مستريحٌ وادعٌ ، وليس إلا أن ينتحلَها ويضع توقيعه عليها ويبعث بها الى المجلة ثم هو يقبض فيها الذهب وينال الشهرة ولا يدفع لي عن كل مقالة إلا قرشين[2] ...

قال ا . ش : فما يمنعك أن ترسل أنت هذه المقالات الى المجلة فتقبض فيها الذهب ، قال : إن هناك أسراراً أنا مُحْصِيها وكاتمها ، ولا ينبغي أن يعلمها أحد فانها أسرار ... قال له : فدع (الرافعي) واكتب لي أنا هذه المقالات وأنا أعطيك في كل مقالة ذهبَين لا قرشين

قال هذه أسرار ولا أستطيع أن أكتب إلا للرافعي ، لأن (نابغة القرن العشرين) لا يجوز أن يدعي كلامَه إلا أستاذ نابغة القرن العشرين ، ولو ادعاه غيره لكان هذا حطاً من قدر نابغة القرن العشرين . وهذا بعض الأسرار لا كل الأسرار ...

قلت : ثم جاء المجنونان في العشيّة الى الندىّ

(لها بقية)

إلى الأستاذ ح . ع في بغداد : سرني كتاب الصديق الكريم ، ولكن ما قصة الحجر الأخضر الذي يشبه الزمرد ؟ الرافعي

(١) فسر (صادق) بأنه أستاذ نابغة القرن العشرين . . .

(٢) لا يزال هذا المسكين منذ تسعة أشهر يدعي أنه هو الذي يكتب لنا هذه المقالات ، غير أنه رفع القيمة أخيرا فجعلها عشرين قرشاً .....!..

١ ـ الصقالبة في الرواية العربية
وفي الدولة الأندلسية
للأستاذ محمد عبد الله عنان

لم يعن العرب في فتوحاتهم الأولى بتعيين الأمم والأجناس الأجنبية تعييناً واضحا ، وإذا استثنينا الفرس والروم والقبط والبربر والقوط ، فان هذا التصنيف للأمم والأجناس الأجنبية يتخذ في الرواية الاسلامية صفة التعميم الناقص ، فنجد كلمات « الأعاجم » و« النصارى » و« الفرنج » تطلق على أمم وأجناس متباينة لا يمكن تحديدها وتعيينها إلا على ضوء الحوادث والظروف ؛ بل نجد كلمة « الروم » ذاتها تطلق في الرواية الاسلامية الأولى على الرومان وعلى سكان الدولة الشرقية (الدولة البيزنطية) اليونانيين وأحيانا على سكان المستعمرات الرومانية مثل الشام وطرابلس ؛ وتطلق كلمة الفرنج لا على أمة الفرنج (الفرنكيين) وحدها ، بل على معظم الأمم والممالك النصرانية التي كانت تعيش يومئذ في غرب أوروبا وفي وسطها ؛ ولم تعن الرواية الاسلامية بالتصنيف والتحديد في هذا الميدان إلا منذ القرن الثالث الهجري ، وفي القرن الرابع نجد هذا التصنيف القومي أكثر وضوحا سواء من حيث اللفظ أو المعنى ، فنجد الرواية الاسلامية تحدثنا عن الفرنج واللمان (الألمان) والبلغار والروس والصقالبة ، وعن انكبردية (بلاد اللومبارد) وافرنسة وبرطانية ؛ وهذا التقدم في تصنيف الأجناس والأمم يرجع الى تقدم بماثل في الجغرافية الاسلامية ، والى تقدم العلائق والصلات الدبلوماسية والتجارية بين الأمم الاسلامية والأمم النصرانية

وقد كانت كلمة « الصقالبة » من أغمض الكلمات التي أطلقت في الرواية الاسلامية على الأجناس الأجنبية الدخيلة ؛ ولم يبق اليوم ثمة غموض في تعريف البلغان والأمم الصقلبية ، فهي تشمل قسما من بلاد البلقان وتشمل صربيا ورومانيا وروسيا حتى الشرق الأقصى وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا وشرق ألمانيا ؛